وزارة التعليم العالي والبحث العلمي المادة : التداولية

جامعة الانبار – كلية الآداب أستاذ المادة : أ.د. علي حسين

قسم اللغة العربية - الدراسات العليا (الدكتوراه / لغة) (٢٠١٩ - ٢٠٢٠)

الفصل الثاني

المحاضرة : الثالثة

(دراسة الأفعال الكلامية فى خطاب السورة .)

١/التعريف بالسورة وفضلها :

سورة البقرة هي أطول سورة في القرآن الكريم، وهي أول سورة نزلت بالمدينة، وهي تعنى كغيرها من السور المدنية بجانب التشريع المنظم لحياة المسلمين الاجتماعية اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وقد بدأت السورة بالحديث عن بني إسرائيل فتضمنت الكشف عن حقيقتهم وبيان مواقفهم المعادية للإسلام والمسلمين ، ومواجهتهم العلنية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ وللمجتمع الإسلامي الناشيء بالمدينة . كما تحدثّت عن طبيعة العلاقة بين اليهود والمنافقين ، وبينهم وبين المشركين وكيف هؤلاء جميعا يخططون ويتآمرون للقضاء على الإسلام والمسلمين .

ثم بيّنت السورة وكشفت حقيقة أعداء الله من بني إسرائيل الذين نقضوا العهود والمواثيق ، وقتلوا أنبياء الله بغير حقّ ، ودعوا إلى التجّرد من نسب أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال تعالى : (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥))البقرة . ثم حذّرت المؤمنين في ما يزيد عن ثلث السورة ـ الآيات من 47 إلى 123 ـ من اتّباع اليهود فإنّهم في وانحراف عن الهدى إلى يوم الدّين .

قال تعالى : (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)) البقرة .

ثم انتقلت السورة من خطاب أهل القرآن بالتذكير بما هو مشترك بين قوم موسى وقوم محمد عليهما السلام من نسب إبراهيم والاتفاق على فضله، ونبذ مزاعم

الخلاف على القبلة وبيان الأساس الأعظم للدين وهو توحيد الله وعبادته وحده وشكره على ما أنعم به من التمتع بالطيبات من الرزق .

وتضمنت السورة آية عظيمة في العقيدة والأسرار الإلهية وهي آية الكرسي ... ، كما تضمنت أطول آية في كتاب الله ، آية الدْين وما يتعلّق به من أحكام ؛ كوجوب الكتابة، والإشهاد عليه، كما حثّت على وجوب أداء الأمانة، وتحريم كتمان الشهادة. وختمت السورة بالتذكير بالتوبة والإنابة إلى الله، وبالدعاء العظيم المشتمل على طلب اليسر السماحة، ورفع الحرج، وطلب النصرة على الكفار.

فالسورة كلها منهاج قويم للمؤمنين ببيان أوصافهم معارضيهم ومعاديهم من الكفار والمنافقين، وتوضيح مناهج التشريع في الحياة الخاصة والعامة، واللجوء في الخاتمة إلى الله والدعاء المستمر له في التثبيت على الإيمان ، والإمداد بالإحسان والفضل الإلهي ، وتحقيق النصر على أعداء الله والإنسانية .

فضل سورة البقرة :

فضل سورة البقرة عظيم، وثوابها جزيل، وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تُشيد بفضلها ، منها ما ورد في صحيح مسلم في باب (فضل قراءة القرآن وسورة البقرة). عن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ يقول: ((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)) أي السحرة . رواه مسلم .

وعن النّواس بن سمعان الكلابي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي (صلى الله غليه وسلم) يقول :(«يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ» وضرب لهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثلاثة أمثال ما نسيتهنّ بعد . قال: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»)) . رواه مسلم .

كما ورد في فضل قراءة خواتيم هذه السورة الكريمة في باب (فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) في صحيح مسلم ـ كذلك ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال :

((بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: " هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ ")). رواه مسلم .

٢/ الأفعال الكلامية في خطاب السورة :

سيتم في هذا الجزء من البحث دراسة وتحليل نماذج من الأفعال الكلامية الواردة في خطاب السورة وفق المقاربة التداولية(تصنيف سورل لأفعال الكلام) مع الأخذ بعين الاعتبار ما قد تتضمنه النماذج المدروسة من أساليب نحوية أو بلاغية تُسهم في إبراز الفعل الكلامي ، بالاعتماد على ما ورد في تفسيري : الكشاف للزمخشري، والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور .

١ـ الأفعال الإخبارية (التقريريات):

ومن هذا النوع من الأفعال الكلامية في خطاب السورة نجد :

أـ وصف القرآن الكريم والمؤمنين به:

قال تعالى: (الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)) البقرة .

وردت هذه الآيات في بداية سورة البقرة وهي تتحدّث عن وصف كتاب الله ، ووصف المؤمنين به. (الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) ملفوظ إخباري من أفعال الكلام التقريرية (Assertives) حسب تصنيف سورل، وهي الأفعال التي يلتزم فيها المتكلم بصدق القضية المعبّر عنها . وقد جمعت هذه الآية الكريمة عددا من الأفعال الكلامية الإنجازية هي: التنبيه والوصف والتقرير والثناء، والإخبار وهو ما أشار إليه الزمخشري في الكشاف بقوله : << بيان ذلك أنّه نبّه أولا على أنّه الكلام المتحدّى به، ثم أُشير إليه بأنّه الكتاب المنعوت بغاية الكمال (ذلك الكتاب) ، فكان تقريرا لجهة التحدّي ، وشدّا من أعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبّث به طرف من الرّيب ، فكان شهادة وتسجيلا بكماله ؛ لأنّه لا كمال أكمل ممّا

للحق واليقين ... ثم أخبر عنه بأنّه هدى للمتقين، فقرّر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشّك حوله وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه >>.

((٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) .

اشتملت هاتان الآياتان على عدّة ملفوظات وصفية تقريرية ـ حسب سورل ـ وهي :

(يؤمنون بالغيب) ، (يقيمون الصلاة) ، (مما رزقناهم ينفقون) ، (يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك) ، (بالآخرة هم يوقنون) . وقد بيّنت هذه الملفوظات صفات هؤلاء المؤمنين المتّقين الذين خصّهم الله ـ سبحانه ـ بالهدى والفلاح الذي تؤكّده الآية الموالية:(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ؛ فقد تضمنت هذه الآية فعلا كلاميا إخباريا ـ حسب سورل ـ وقد تضمّن هذا الفعل الكلامي قرارا من الله سبحانه يقضي بهداية وفلاح فئة المؤمنين جزاء إيمانهم وتقواهم .

وقد أفاد تكرار اسم الإشارة (أولئك) ـ والذي أحدث التفاتا في خطاب الآية من صيغة الغائب إلى المخاطب ـ تقوية هذا الحكم (الهداية والفلاح) ليصبح بمثابة الوعد والبشارة من الله تعالى في حقّ عباده المؤمنين .

ب/ وصف الكافرين :

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)) البقرة . الخطاب في هاتين الآيتين موجّه من الله ـ سبحانه ـ إلى نبيه ـ صلى الله عليه وسلّم ـ وهو يتضمّن فعل كلام وصفي تقريري تتمثل قوته الإنجازية في نفي (صفة الإيمان) عن أولئك الكافرين الذين عميت بصائرهم فاستوى عندهم الإنذارُ مع عدمه ، وهو ما يؤكّده اجتماع المؤكدات الواردة في نص الآية : حرف التوكيد (إنّ) ، وجملة (لا يؤمنون) ، وجملة(ختم الله على قلوبهم ...) ، ثم يُخبره بعد مآلهم ومصيرهم (ولهم عذابٌ عظيم) وهو فعل كلامي إخباري وقد تضمن قوة إنجازية ضمنية هي الوعيد بالعذاب العظيم للكافرين يوم القيامة .

ج/وصف المنافقين :

المنافقون هم الصنف الثالث من الناس الذين جاء الإخبار عنهم في بداية هذه السورة بعد المؤمنين والكافرين ، إنّهم أشد خطرا على الإسلام والمسلمين من الكفار لأنّهم يُظهرون الإيمان ويُخفون الكفر . لقد وصف الحق ـ سبحانه ـ حال

الكافرين في آيتين ، بينما وصف حال المنافقين في ثلاث عشرة آية (من الآية 8إلى الآية 20) .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)) . تضمنت هذه الآيات مجموعة من الأفعال الكلامية الوصفية التقريرية التي تكمن قوتها الإنجازية في إبراز ادّعاءات المنافقين الكاذبة (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ...) ، وكشف خداعهم (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ...) ، وخُبث نفوسهم (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) ، كما تضمنت فعلا كلاميا إخباريا تمثلت قوته الإنجازية في الوعيد بالعذاب الأليم للمنافقين (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) ، وهو فعل كلام إنجازي من فئة الالتزاميات (commissives) التي تتحقّق بفضل التزام المتكلم بإنجاز المتكلم بإنجاز عمل من المستقبل ـ حسب تصنيف سورل ـ ورد هنا إلى جانب الأفعال الكلامية الإخبارية في هذه الآيات المتعلقة بوصف حال المنافقين .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)) . قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) ؛ فعل كلامي إنجازي ؛ نهي ، القصد منه إسداء النّصح والتحذير ، لأنّ القائل لهم لا تُفسدوا في الأرض بعضُ مَن وقف على حالهم مِن المؤمنين الذين لهم اطّلاع على شؤونهم لقرابة أو صحبة ، فيُخلصون لهم النصيحة والموعظة رجاء إيمانهم وخشية عليهم من العقوبة . (قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) فعل كلامي تقريري تتمثل قوته في ادعاء المنافقين الإصلاح وجعله مقصورا عليهم ، فكان الرّد هذا الادّعاء (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) بفعل كلامي تقريري تتمثل قوته في تأكيد قصر الفساد على هؤلاء المنافقين . وقد أفادت أداة الاستفتاح (ألا) التنبيه على الخبر وتقويته وإشاعته ليصبح معلوما لدى السامعين وهو ما يجعل هذا الملفوظ الإخباري يتضمّن قوة إنجازية تتمثل في التحذير من كيد المنافقين .

إنّ الغرض الإنجازي العام للأفعال الكلامية الواردة في الآيات السابقة هو التقرير، بحيث تتمّ إنجازية هذه الأفعال من خلال خطوتين؛ يتحقّق الإنجاز في الخطوة الأولى منهما من خلال نطق الكلام وأدائه، بينما يتحقق في الخطوة الثانية من خلال الإخبار أو الوصف باعتبارهما غرضين إنجازيين شأنهما شأن أي غرض آخر كالرفض أو القبول ، إلى غير ذلك ، وهو ما توصّل إليه اوستين الذي بيّن أنّ

الإخباريات (الوصفية) في الظاهر ، والتي يفضل تسميتها (تقريرية) هي التي يُمكن أن تُحلّل في شكل (أفعال كلامية) .

٢/ الأفعال التوجيهية (الطلبيات):

وتتمثل في أفعال التكليف، والغرض منها حمل المخاطب على أداء فعل أو عمل معين . ويضم هذا الصنف مجموعات كبيرة من الأفعال الكلامية التي تختلف من حيث قوتها الإنجازية باختلاف السياق والمقام الذي يجري فيه الخطاب ، وبحسب طبيعة العلاقة بين المتكلم والسامع ، وهي تشمل جميع الصيغ الطلبية كالأمر والنهي والاستفهام والنداء .

أ/ النداء :

والنّداء في اصطلاح البلاغيين هو طلب المتكلم إقبال المخاطب بواسطة أحد حروف النداء ملفوظا كان حرف النداء أو ملحوظا . والغاية من النداء في الخطاب القرآني أنّه << طلبٌ واستحضار يراد منه إقبال المدعو على الداعي ليتمكن من توجيه ما يريد إليه ، ويصحب ذلك غالبا الأمر والنهي . أخرج البيهقي وأبو عبيدة وغيرهما عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا سمعت الله يقول : يا أيها الذين آمنوا فأوعها سمعك فإنّه خيرٌ يؤمر به أو شرٌّ يُنهى عنه >> .

ويعدّ فعل النداء من الأفعال الكلامية التوجيهية ، لأنّه يحفز ويهيء المتلقي لردّ فعل المتكلم. وأبرز أدواته (الياء) ، وهو يحتل نسبة معتبرة في النص القرآني نظرا لارتباطه بأفعال التكليف؛ الأمر والنهي وأفعال الإخبار والاستفهام ونحوها .

والنداء أول فعل كلامي يقوم به المخاطب ليلفت انتباه المستمع ، ويجعله مهيأ لتلقي الخطاب الذي يسعى إلى إيصاله إليه.

إنّ أول نداء في خطاب السورة (يا أيُّها النّاس)، وهو دليل على عالمية هذا الخطاب، وأنّه متوجّه إلى كلّ الناس. ثمّ يبدأ بعد ذلك تخصيص النداء بحسب نوع المخاطَب والخطاب الذي يسعى القرآن الكريم إلى تبليغه إليه .

لقد بين الله ـ سبحانه ـ وحدانية ألوهيته بأنّه وحده المعبود، وأنّه المُنعِم على عباده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وأنّه المتفضّل عليهم بكلّ النعم ، ومن ثمّ فإنّه وحده ـ سبحانه ـ المستحق للعبادة. قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ

بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) فعلان كلاميان : الأول تأثيري (Perlocutoire)، نداء، تتمثل في تنبيه المخاطبين وتهيئتهم لتلقي الخطاب، والثاني غرضي إنجازي (illocutoire) ، أمر ، قوته تتمثل في دعوة المخاطبين إلى عبادة الله الخالق .

(الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) ؛ ملفوظ تقريري تكمن قوته في الإنجازية في تعداد نِعم الله على الناس، ليكون تذكيرهم بهذه النّعم المتعدّدة بمثابة الحُجج والمقدّمات للغاية التي خلقهم الله ـ تعالى ـ لأجلها ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له.

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)) فعل كلامي إنجازي تمثل في النّهي الصريح عن الشرك بالله ، وقد تضمن ملفوظ الآية إلى جانب النّهي قوة إنجازية ضمنية هي التوبيخ؛ إذ كان يُفترض بمن كان حاله العلم بنعم الله عليه أن يخصّه بالخضوع والعبادة لا أن يُعرض عنه ويُشرك به .

يأتي النداء من الله تعالى إلى عباده، كما يأتي كذلك من العباد إلى الله، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي (ت790هـ) :<< إن القرآن أتى بالنداء من الله تعالى للعباد، ومن العباد لله سبحانه؛ إما حكاية ، وإما تعليما ، فحين أتى بالنداء من قبل الله للعباد جاء بحرف النداء المقتضي للبعد، ثابتا غير محذوف ، كقوله تعالى (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)) العنكبوت . وقوله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) ١٥٨ الأعراف . فإذا أتى بالنداء من العباد إلى الله تعالى جاء من غير حرف {فلا تجد فيه نداء بالرب تعالى بحرف }

نداء ثابت بناء على أنّ حرف النّداء للتنبيه في الأصل ، والله منزّه عن التنبيه >> . ونلاحظ هنا كيف أدى فعل النّداء الكلامي وظيفته التداولية من خلال حذف حرف النداء أو ذكره بحسب ما يقتضيه المقام قربا أو بُعدا بين الطرفين المتخاطبين، فنداء الله تعالى لعباده يناسبه إثبات حرف النداء ليؤدي وظيفتين أساسيين:

الأولى : تنبيه العبد (المنادى) ليستعد لتلقي الخطاب من الله ، إذ قد يكون العبد غافلا ، أو مُعرضا أو غائبا . وهنا يكون فعل التنبيه دور كبير في إيصال الرسالة إلى الطرف المتلقي (العبد) حتى يمتثل لأوامر الله .

والثانية : فهي للدلالة على ارتفاع شأن المنادي ـ الله تعالى ـ وبُعد منزلته، وأنّه منزّه عن مداناة عباده ؛ إذ هو في دُنُوّه عالٍ، وفي علوّه دان سبحانه . وأما نداء العباد لله تعالى فإنّه نداء رغبة وطلب لما يُصلح شؤونهم وأحوالهم، وقد اقترن بلفظ الربّ في عموم الخطاب القرآني لأنّ الرّب في اللغة هو المربّي وهو القائم بشؤون المربوبين من عباده .

وقد جاء هذا النوع من النّداء خاليا من حرف النداء في كثير من آيات السورة؛ استشعارا لمقام القُرب من الله ـ جلّ وعلا ـ حين دعائه مصداقا لقوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ...). ١٨٦ومن صور هذا النوع من النداء في خطاب السورة ما ورد في آخر آية منها ، وهو قوله تعالى :

(رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) ٢٨٦ البقرة ، فقد تكرر فعل النداء الكلامي في هذه الآية ثلاث مرات وجاء خاليا من حرف النداء ليناسب مقام الدّعاء والتّذلل إلى الله القريب المجيب ، ففي تكرار صيغة النداء (ربّنا ...) في هذه الآيات قصدٌ إلى إظهار التّذلل والتضرّع إلى الله، ورجاء في تحقّق الإجابة، << لأنّ مخاطبة المنادى مغنية عن إعادة النّداء لكن قُصد من إعادته إظهار التّذلل >> .

ب/الأمر والنهي : هما من الأساليب الإنشائية الطلبية ، وأما بلغة التداوليين فهما فعلان كلاميان يحمل كلّ مكنهما قوة إنجازية تحدّدها إرادة المتكلم وقصده ، وهي إرادة متعلّقة بطلب إيقاع المأمور به وعدم إيقاع المنهي عنه. إذ كثيرا ما يرتبط أسلوب النهي بأسلوب الأمر في الخطاب القرآني ولا يختلف عنه . يقول المبّرد : <<واعلم أنّ الطلب من النهي بمنزلته من الأمر يجري على لفظه كما جرى على لفظ الأمر .

والأمر والنهي في القرآن الكريم قد يردان على سبيل الحقيقة لحمل المخاطب على إتيان المأمور به وعدم إتيان المنهي عنه، كما يأتيان على سبيل المجاز ، فتخرج صيغتاهما عن المعنى الأصلي إلى معان فرعية أخرى كثيرة تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال .وقد وردت جملة الأمر في آيات السورة بصيغ مختلفة ؛ لعلّ أكثرها ورودا جملة الأمر المصدرة بفعل الأمر (افعلْ) باعتبار الخطاب موجّه من الآمر ـ سبحانه ـ إلى المأمورين من خلقه لحملهم على الامتثال لأوامره ونواهيه .

قال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا...) ٣٤ البقرة . فقد أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ فسجدوا على الفور << لأنّ القول في هذه الآية تضمّن أمرا بفعل فيه غضاضة على المأمورين فناسبه إظهار عظمة الآمر بإسناد فعل القول إلى ضمير العظمة (وإذ قلنا) >> ليتحقق الغرض التداولي المتمثل في قصد المتكلم حمل المأمورين (الملائكة) على السجود (لآدم) امتثالا لأمره سبحانه تعالى . وهو فعل كلام توجيهي ـ حسب سورل ـ يحمل قوة إنجازية حرفية هي الأمر الصريح (طلب السجود على وجه الإلزام) والذي تحقّق بمجرد التلفظ بصيغة الفعل أسْجُدُوا فسجدوا ، وبذلك فإنّ هذه الأفعال التوجيهية تتحقق بمجرد التلفظ بها فتؤثر في الواقع وتغيّره ، وعندئذ يتحقّق قصد المخاطِب والغرض التواصلي الذي من أجله أنشأ الخطاب ، وهذا هو منطلق نظرية الأفعال

الكلامية عند كل من أوستين و سورل ، وهي الفكرة الأساسية نفسها التي تنبّه لها العلماء العرب القدماء وهي : << أنّ من الكلام ما يكون فعلا أو إيقاعا لفعل يقارنه في الوجود >> . ومن الآيات التي اقترن فيها الأمر بالنهي ـ وهي كثيرة ـ في خطاب السورة ؛ قوله تعالى : (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) ٤١ البقرة . وقد تضمنت هذه الآيةً الكريمة فعلي أمر هما :

ـ (آمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) : فعل كلامي إنجازي، أمر يحمل هذا الفعل الكلامي قوة إنجازية صريحة تتمثل في وجوب الإيمان بما أنزل الله (القرآن) ، ففي هذا الفعل << شروع في دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام وهدى القرآن ، وهذا هو المقصود من خطابهم بعد أن قدّم بين يديه ما يهيىء نفوسهم إلى قبوله كما تتقدّم المقدّمة على الغرض >> .

ـ (وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) : فعل كلامي طلبي غرضه الإنجازي حثّ المخاطبين من بني إسرائيل على تقوى الله لأنه لما كانت هذه الآية تأمرهم بالإيمان بالقرآن على سبيل الوجوب ناسبها الأمر بأن لا يتقّوا إلاّ الله لأنّ التقوى معتبر فيها العمل بالمأمورات واجتناب المنهيات . وهو ما تضمنته هذه الآية الكريمة ، كما تضمّنت فعلي النهي :
ـ قوله تعالى (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) : وقد تضمن فعل النهي هذا قوتين إنجازيتين : الأولى صريحة ومباشرة : تتمثل في المبادرة إلى الإسلام .

والثانية ضمنية غير مباشرة : تتضمّن معنيي التعريض والتوبيخ إذ << المقصود الأهمّ هو المعنى التعريضي وهو يقوم قرينة على أنّ القصد من النّهي أن لا يكونوا من المبادرين بالكفر أي أن لا يكونوا متأخرين في الإيمان ... >> .

ـ قوله تعالى : (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) : تضمن ملفوظ هذه الآية فعلا كلاميا إنجازيا ، نهي (وَلَا تَشْتَرُوا...) ، جاء معطوفا عمّا قبله ، والطرف المخاطب به هم علماء بني إسرائيل وأحبارهم الذين صدّهم عن دعوة الإسلام خشيتهم أن تزول رئاستهم في قومهم ، فكان سبيلهم إلى ذلك ؛ هو إنكار هذا القرآن وصدّ النّاس عنه، وقد شبّه الحق ـ سبحانه عملهم هذا بالصفقة الخاسرة على سبيل الاستعارة إذ شبّههم بالذي يبيع سلعة غالية بثمن بخس ، فكان القصد من هذا النهي تحذيرهم من مغبّة هذا العمل الشنيع ، ودعوتهم إلى الالتزام بتقوى الله (وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) .

ج/ الاستفهام :

هو أحد أكثر الأساليب الإنشائية استعمالا وأهمية ، ويُراد به طلب الفهم أو معرفة ما هو خارج الذهن . وهو قد يرد على سبيل الحقيقة بحيث إنّ المستفهم يرجو من سؤاله حصول ما لم يكن يعلم قبل السؤال ـ وقد يرد على سبيل المجاز فيخرج إلى أغراض ومعان أخرى يحددها الموقف والسياق وقرائن الأحوال كالتقرير والنفي والتوبيخ وغيرها .

والسؤال من الله تعالى في القرآن الكريم هو من هذا القبيل وهو كثير في خطاب السورة ، لأنّه ـ سبحانه ـ مستغنٍ عن سؤال خلقه فهو يعلم الأشياء قبل كونها ، وإنّما يستفهمهم ليقرّرهم ويذكّرهم أنهم قد علموا حقيقة ما سُئلوا عنه ، وهو من الأساليب البديعة التي تميز به الخطاب القرآني .

فمن الآيات التي ورد فيها الاستفهام قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)) البقرة . يمثل الخطاب في هاته الآية الكريمة بداية حوار الحوار بين نبّي الله موسى ـ عليه السلام ـ وقومه من بني إسرائيل بشأن قصة القتيل التي أمرهم فيها الله ـ سبحانه ـ بذبح البقرة ، (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) ؛ فعل كلامي لفظي تقريري مؤكّد ب(إنّ) للدّلالة على أهمية الخبر ، والقوة الإنجازية لهذا الفعل الكلامي تكمن في كونه أمرا من الله، وهو بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ .

(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) فعل تلفظي ؛ ناتجه فعل كلامي إنجازي ، وهو هنا استفهام حقيقي ـ حسب الشيخ ابن عاشور ـ يسعى من خلاله السائل إلى الحصول على إجابة ، والسؤال فعل كلامي أولي يتطلّب وبقوة ردّ فعل من المخاطب ، والملفوظ السابق يحمل بين طياته مضامين مضمرة من باب السفاهة وسوء الأدب في الحوار واتّهام النّبي الكريم بأنّه يهزأ بهم ويسخر منهم . والاستفهام يقوم كحجة على نتيجة محدّدة ، وسؤالهم في هذا المقام دليل على سفاهتهم وسوء أدبهم وقد نتج عنه آثار سلبية على نفسية المتلقي جعلت منه فعل كلام تأثيري (acte Perlocutoire) . فكان نتيجة هذا الفعل التأثيري قوله :(قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) وهو فعل كلام إنجازي نتج عن الفعل التأثيري السابق ، وفيه تبرّؤ وتنزّه عن الهزء لأنّه لا يليق بالعقلاء الأفاضل فضلا عن الأنبياء والرّسل عليهم السلام . كما جاء الاستفهام حقيقيا في قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)) البقرة .

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ) : فعل كلام تلفظي ، استفهام ، غرضه الإنجازي طلب معرفة الشيء الذي سألوا عنه .

لقد سأل الصّحابة عن بيان ما ينفقونه وما الذي ينفقونه . فأجابهم على طريقة الأسلوب الحكيم ببيان المصارف ، تنبيهاً لهم على أن المهمّ هو السؤال عنها .

(قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) . وهي إجابة في صورة فعل كلامي تلفظي مبدوء بفعل كلامي إنجازي ، أمر متبوع بمتتالية من الأفعال الكلامية الإخبارية التي بيّنت للسائلين ووضّحت حقيقة ما سألوا عنه . ثمّ رغّب ـ سبحانه ـ في الإنفاق وكنّى عن الجزاء به في قوله : (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) البقرة : ٢١٥. لأنّ العليم القدير إذا امتثل أحدٌ لأمره لا يحول بينه وبين جزائه عليه حائل . كما ورد الاستفهام على سبيل الحقيقة في قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)٢١٩ البقرة.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) : فعل كلامي إنجازي ، استفهام حقيقي ،القصد منه معرفة حكم الشيء المسؤول عنه ،<< والسائلون هم نفر من الصحابة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم